الفصل الرابع

الفسطاط.. الإنحسار.. والبقاء

الفسطاط ..
الإنحسار.. والبقاء

أخذت الفسطاط بعد الحريق الهائل الذى تسبب فى هجرة أهلها منها تلتقط أنفاسها ، فعندما تولى أسد الدين شيركوه الوزارة بعد مقتل شاور نادى فى الناس بالرجوع إلى الفسطاط « فاشتكى الناس من شدة فقرهم وخراب منازلهم وقالوا إلى أى مكان نرجع وفى أى مكان ننزل ونأوى وقد صارت كما ترى وبكو وأبكوا فوعدهم جميلاً وترفق بهم ورجع الناس إليها إلا قليلاً وعمروا ما حول الجامع العتيق » (١).

وشرع صلاح الدين الأيوبى منذ توليه الوزارة فى محاولة تنشيط حركة العمران بالفسطاط ، فجدد جامع عمرو سنة ٥٦٨ هـ/ ١١٧٢ م ، وكان لسور صلاح الدين الذى تم مده ليحيط بالفسطاط والقاهرة معا أثره فى اعادة عمران القسم الغربى منها ، وهو القسم الذى صار داخل السور ، أما القسم الشرقى من الفسطاط فقد ظل كيمانا (٢).

---

(١) د . عبد الرحمن زكى ، الفسطاط وضاحيتها العسكر والقطائع ، ص ٣٤ .
د . حسن الباشا ، مدخل إلى الآثار الإسلامية ، ص ٧٢ .

(٢) أسامة عبد النعيم ، أسوار صلاح الدين وأثرها فى امتداد القاهرة حتى عصر المماليك ، ص ٣٢٠ .

وهنا يحدثنا ابن جبير الذى جاء إلى مصر عام ٥٧٨ هـ/ ١١٨٢ م وزار الفسطاط أى بعد الحريق الذى نشب فيها بأربعة عشر عاماً ، أن أكثر ما بها من بنيان مستجد ، وهى مدينة كبيرة والآثار القديمة حولها ، وعلى مقربة منها ظاهر يدل على عظمة إختطاطها [١] ويعلق ستانلى لين بول على ما ذكره ابن جبير بأن المدينة كانت أقل خرابا مما يتبادر إلى أذهاننا من العبارات التى دونت عن ذلك الحريق . حتى أن ابن جبير أقام فى فندق أبى الثناء فى زقاق القناديل الذى ما يزال عامراً بالقرب من جامع عمرو [٢] .

شهدت الفسطاط فى العصر الأيوبى نشاطا علميا مكثفا خلال العصر الأيوبى ، ويعود ذلك لعدة أسباب ، منها حب صلاح الدين للعلم والعلماء ، ورغبته فى مناهضة المذهب الإسماعيلى مذهب الفاطمين ورد الاعتبار للمذهب السنى فى مصر ، وكان يرى فى المدارس الوسيلة المثالية لذلك . ومن المدارس التى أنشأها صلاح الدين ورجال دولته بالفسطاط .

❁ المدرسة الناصرية

بدأ صلاح الدين يجهز لمشروعه الكبير ، وهو إعادة الاعتبار للمذهب السنى فى مصر التى كان أغلب أهلها سنة ، تمهيدا لتثبيت نفوذه بها ولاتخاذ مصر قاعدة لمحاربة الصليبين فيما بعد ، قبل سقوط الخلافة الفاطمية وأثناء وجود الخليفة العاضد ويؤكد ابن الأثير

---

(١) ابن جبير ، رحلةابن جبير ، ص ٢٧ ، طبعة لجنة تحقيق التراث ، ١٩٨١ م .
(٢) ستانلى لين بول ، سيرة القاهرة ، ص ١١١ ، طبعة الهيئة المصرية للكتاب ، ١٩٩٧ م .

على ذلك بقوله« كان بمصر دار للشحنة تسمى دار المعونة يحبس فيها من يريد حبسه فهدمها صلاح الدين وبناها مدرسة للشافعية وأزال ما كان فيها من الظلم ، وبنى دار العدل مدرسة للشافعية أيضا »[١].

ويؤكد المقريزى ما سبق ذكره بأن « هذه الدار كانت سجنا يعرف بالمعونة ، فهدمها السلطان صلاح الدين فى أول المحرم سنة ست وستين وخمسمائة وأنشأها مدرسة برسم الفقهاء الشافعية ، وكان حينئذ يتولى وزارة مصر للخليفة العاضد ، وكان هذا من أعظم ما نزل بالدولة ، وهى أول مدرسة عملت بديار مصر ، [٢]وكانت هذه المدرسة تعرف فى الماضى بخطة قيس بن سعد بن عبادة الأنصارى ، وعرفت أيضا بدار الفلفل ، ثم قام عيسى بن زيد الجلودى ببناء هذه الدار للشرطة سنة مائتى وثلاث عشرة ثم صارت سجنا يعرف بالمعونة وتغير اسم هذه المدرسة من الناصرية الذى عرفت به فى عهد صلاح الدين إلى اسم « ابن زين التجار» أحد أعيان الشافعية ، والذى قام بالتدريس فى هذه المدرسة لمدة طويلة وتوفى سنة ٥٩٣ هـ ، وتغير اسمها بعد ذلك وعرفت بالمدرسة الشريفية[٣].

---

(١) ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، حـ٩ ، ص ١١٠ .
ابن دقماق ، الجوهر الثمين فى سير الخلفاء والملوك والسلاطين ، ص ١١ ، تحقيق ، د سعيد عاشور ، مراجعة أحمد دراج ، جامعة أم القرى .
د . عفاف صبره ، المدارس فى العصر الأيوبى ، ص ١٥١ ، بحث فى كتاب تاريخ المدارس الإسلامية ، سلسلة تاريخ المصريين ، ١٩٩٢ م .
(٢) المقريزى ، الخطط ، حـ٢ ، ص ٣١٥ .
(٣) د . عفاف صبرة مرجع سابق ، ص ١٥٢ .

❁ المدرسة القمحية

بدأ صلاح الدين فى إقامة هذه المدرسة سنة ٥٦٦ هـ قبيل وفاة العاضد، وتعتبر من أهم المراكز العلمية لتدريس المذهب المالكى ، وبنيت المدرسة فى موضع قيسارية بالفسطاط كان يباع فيها الغزل فهدمها صلاح الدين وبنى المدرسة مكانها ، ويصف المقريزى هذه المدرسة بأنها من أجل مدارس المالكية حيث رتب فيها السلطان أربعة من المدرسين عند كل مدرس عدد من الطلبة وعرفت هذه المدرسة بالقمحية ، لأن صلاح الدين أوقف لها ضيعة بالفيوم تعرف بالجنوشية وكان يتحصل منها قمح يفرق على الطلبة الذين يدرسون بها .

وتعتبر المدرسة القمحية من أشهر المدارس السنية فى العصر الأيوبى ، ولعبت دوراً كبيراً فى تدريس المذهب المالكى الذى كان من المذاهب الشائعة فى مصر وشمال أفريقيا (١).

وأمتد الإهتمام بتشييد المدارس بمصر الفسطاط من ملوك بنى أيوب إلى أمرائهم ومن مدارس هؤلاء الأمراء :

❁ مدرسة منازل العز

كانت من الدور التى شيدت فى العصر الفاطمى ، شيدتها أم الخليفة العزيز بالله وعرفت بمنازل العز ، وكانت تشرف على النيل وتعد لسكنى الخلفاء .

أنزل السلطان صلاح الدين ابن أخيه تقى الدين عمر هذه الدار فسكنها

---

(١) د . عفاف صبرة ، مرجع سابق ، ص ١٥٣ .

مدة ثم إشتراها سنة ٥٦٦ هـ ، وعندما أراد تقى الدين أن يخرج من مصر إلى الشام « وقف منازل العز هذه وحولها إلى مدرسة للفقة الشافعى»[١].

أوقف تقى الدين عمر مجموعة من الأوقاف للإنفاق على هذه المدرسة ومنها الحمام المجاور لها ، وعمر الاصطبل فندقا عرف بفندق النخلة وقفه عليها وكذلك أوقف جزيرة مصر التى اشتراها وعرفت بالروضة ، وقد أطلق على هذه المدرسة التقوية نسبة إلى تقى الدين عمر[٢]ويتضح لنا مما سبق أن تقى الدين عمر ترك مشروعاً معماريا مكونا من أكثر من وحدة معمارية ، وهو ما يعكس لنا نشاط عمرانيا كثيفا فى الفسطاط فى تلك الفترة .

* المدرسة الأزكشية

قام ببنائها الأمير سيف الدين أبازكوج مملوك أسد الدين شيركوه ، وأحد أمراء صلاح الدين الأيوبى ، وجعلها وقفا على الفقهاء الحنفية سنة ٥٩٢ هـ[٣]وبذلك تعتبر هى المدرسة الثانية التى تدرس الفقه الحنفى بمصر ، وقد جاءت عمارتها ضمن مجموعة معمارية تضم

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٥٧ .
(٢) ابن دقماق ، الانتصار لواسطة عقد الأمصار ، الجزء ٤ ، ص ٩٣ ، ٩٤ .
د . عفاف صبرة ، مرجع سابق ، ص ٣٢٠ .
(٣) ابن دقماق ، الانتصار لواسطة عقد الأمصار ، حـ ٤ ، ص ٩٥ .

ربعين [1] متقابلين بناهما الأمير سيف الدين ، وشيدت المدرسة علو أحد الربعين ، وهذا نموذج آخر على مجموعة معمارية من العصر الأيوبى بالمدينة .

* المدرسة الصاحبية

أنشأها الوزير بهاء الدين على بن محمد سنة ٦٥٤ هـ ، وكانت من أجل مدارس الدنيا ، وتدل المصادر التاريخية على أنه كان بها طباق لسكن الطلبة ، وكان الطلبة يتزاحمون على السكنى بها ، لعظم صيت المدرسة [2] .

* مدرسة بن رشيق

قام شعب الكانم من بلاد التكرور الأفارقة بدفع مبلغ للقاضى علم الدين بن رشيق عند وصولهم إلى مصر متجهين إلى الأراضى المقدسة

---

(١) الربع : الربع الدار حيث كانت والمنزل والوطن ، وكل ذلك مشتق من ربع المكان إذا أطمأن . وفى العمارة المملوكية يقصد به مجموعات من الوحدات السكنية ، وغالبا تعلو خان أو وكالة أو حوانيت ، وكل مجموعة من الوحدات السكنية لها مدخل وسلم خاص بها تسمى ربع ، أن من الممكن أن يكون بالمبنى الواحد أكثر من ربع .
وفى الوثائق نجد « ربع دورين متطابقين أربعة عشر طبقة » و « ربع يشتمل على دورين علوية وسفلية » و « ربع يشتمل على مساكن عدتها أربعة وعشرون مسكناً » و « ربع يشتمل على طباق دائرة عدتها ستة عشر طبعة » و « ربع دورين به مساكن ثلاثة وثلاثون سكنا وأربع قاعات » .
د . محمد أمين وليلى على إبراهيم ، المصطلحات المعمارية فى الوثائق المملوكية ، ص ٥٢ ، دار النشر بالجامعة الأمريكية بالقاهرة ، ١٩٩١ م .
(٢) ابن دقماق ، الانتصار ، حـ ٤ ، ص ٩٥ .
د . عفاف صبرة ، مرجع سابق ، ص ١٦٠ .

لأداء فريضة الحج ، وذلك من أجل اقامة مدرسة لتدريس الفقه المالكى بمصر فقام ابن رشيق ببنائها ، « ودرس بها فعرفت به » [1] واستمر هؤلاء وداوموا على إرسال المال اللازم لهذه المدرسة حتى صارت لها سمعة كبيرة فى بلاد التكرور على أنها مدرسة تحمل اسمهم داخل مصر [2].

* النيل وأثره

عانت مصر خلال عامى ٥٩٧ / ٥٩٨ هـ ـ ١٢٠٠ / ١٢٠١ م من مجاعة وأزمة غلاء فى الأسعار بسبب نقصان مياه النيل ، حيث لم ترتفع مياه النيل أكثر من ١٢ ذراعا و ٢١ أصبعا وهو أدنى منسوب لمياه النيل ، ويصف عبد اللطيف البغدادى ما حل بمصر فى عام ٥٩٧هـ قائلاً «ودخلت سنة سبع مفترسة أسباب الحياة ، وقد يئس الناس من زيادة النيل وارتفعت الأسعار وأقحطت البلاد وأشعر أهلها البلاء وهربوا من خوف الجوع وإنضوى أهل السواد والريف وتفرقوا فى البلاد أيادى سبيا ومزقوا كل ممزق ، ودخل إلى القاهرة ومصر أى الفسطاط منهم خلق عظيم ، واشتد بهم الجوع ووقع فيهم الموت . وعند نزول الشمس الحمل [3] وبىء الهواء ووقع المرض والموتان واشتد بالفقراء الجوع حتى

---

(١) ابن دقماق ، مصدر سابق ، حـ ٤ ، ٩٦ .

(٢) د . عفاف صبره ، مرجع سابق ، ص ١٦٣ .

(٣) وذلك يكون من يوم ٢١ مارس إلى ٢٠ إبريل من كل عام ويبدو أن هذه الفترة التى كثر فيها عفن الجثث بالمدينة ، مع شمس هذه الفترة وريح الخماسين كل ذلك ساعد على انتشار الوباء بالمدينة .

أكلوا الميتات والجيف والكلاب والبعر والأرواث ثم تعدوا ذلك إلى أن أكلوا صغار بنى آدم فكثيراً ما يعثر عليهم ومعهم صغار مشويين أو مطبوخين فيأمر صاحب الشرطة باحراق الفاعل لذلك والآكل[1]. ويؤكد البغدادى أنه تم حصر مائة وأحد عشر ألفا من الموتى فى القاهرة وحدها وأكثر من ذلك فى الفسطاط التى يصفها أثناء زيارته لها سنة ٥٩٨ هـ بقوله: « ثم أننا دخلنا مصر فرأينا منها دروباً وأسواقاً عظيمة كانت مغتصة بالزحام والجميع خال ليس فيه حيوان إلا عابر سبيل فى الأحايين، وأن المار فيها ليستوحش، ومع ذلك فقلما ينفك قطر منها عن جثة وعظام متفرقة حتى خرجنا إلى موضع يسمى اسكرجة فرعون فرأينا الأقطار كلها مغتصة بالجثث والرمم »[2].

وكان قد حكى للبغدادى رواية ذات دلالة على عظم ما حدث بالفسطاط وذلك قبيل زيارته لها التى وصف فيها حالها كما نقلناه حيث قيل له « أنه كان بمصر تسع مائة منسج للحصر، فلم يبق إلا خمسة عشر منسجا، وقس على هذا سائر ما جرت العادة أن يكون بالمدينة من باعة وخبازين وعطارين وخياطين وغير ذلك من الأصناف، فانه لم يبق من كل صنف من هؤلاء الا نحو ما بقى من الحصريين أو أقل من ذلك »[3].

وتؤكد وثائق الجنيزة ضخامة هذه الأزمة فى الفسطاط، وتسجل

---

(١) عبد اللطيف البغدادى، الأفادة والاعتبار فى الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر، ص ٥٢، كتابات مصرية، القاهرة ١٩٨٨.
(٢) المرجع السابق، ص ٦٥، ٦٦.
(٣) المرجع السابق، ص ٦٠.

مقدار ارتفاع الأسعار (وصل ثمن أردب القمح إلى ٣ دينارات فى عام ١٢٠١) ، كما تذكر تدهور الأنشطة (هبوط ايجارات الرباع إلى النصف ويوجد الكثير منها خالى بلا مكان » . وتشير هذه الوثائق أيضا إلى نزوح السكان إلى القاهرة [١] .

إتخذ الصالح نجم الدين أيوب من جزيرة الروضة مقراً سلطانياً من خلال إقامة القلعة الصالحية بها عام ٦٤٦ هـ/ فكان لذلك أثره فى إزدهارمصر الفسطاط لبعض الوقت ، ذلك أن الجند إنتقلوا إلى مصر ليكونوا على مقربة من القلعة الصالحية . وقد تضخمت أسواق مصر وبنى الصالح نجم الدين أيوب أمام الجسر الذى يربط الجزيرة بساحل الفسطاط قيسارية عظيمة تضم كل ما يلزم الجند المقيمين فى القلعة الصالحية [٢] .

على أن أمر هذه القلعة لم يدم طويلاً ، فقد أمر عز الدين أيبك التركمانى (أول ملوك المماليك) عام ٦٤٩ هـ بإخلاء القلعة ، ولم يترك فيها أحداً من المماليك ، بل هدمها ، واستفاد من أنقاضها فى بناء المدرسة المعزية بالفسطاط على مقربة من شاطئ النيل ، كذلك فعل المنصور قلاوون (٦٧٨ هـ ـ ٦٨٩ هـ) حين أراد عمارة البيمارستان المنصورى ومدرسته . أما ما بقى من أنقاض القلعة الصالحية إلى أيام الناصر محمد فقد تمت الإستفادة منه ، وخربت بعد ذلك تماما [٣] .

---

(١) أندرية ريمون ، القاهرة تاريخ حاضرة ، ص .
(٢) ابن سعيد المغربى ، النجوم الزاهرة فى حلى حضرة القاهرة ، ص ٢٧ .
(٣) ابن دقمان ، مرجع سابق ، حـ ٤ ، ص ١١٣ .
القلقشندى ، صبح الأعشى فى صناعة الإنشا ، حـ ٣ ، ص ٣٣٩ .

زار الفسطاط فى أواخر العصر الأيوبى الرحالة ابن سعيد المغربى[1] وقد م لنا وصفاً لحالها فى ذلك الوقت ، فيقول لنا لما أقبلت على الفسطاط أدبرت عنى المسرة ، وتأملت أسواراً مثلمة سوداء ، وآفاقاً مغبرة ، ودخلت من بابها ، وهو دون غلق ، يفضى إلى خراب معمور بمبان مشتتة الوضع ، غير مستقيمة الشوارع ، قد بنيت من الطوب الأدكن والقصب والنخيل ، طبقة فوق طبقة وحول أبوابها من التراب والأزبال ما يقبض نفس النظيف ، ويغض طرف الظريف ، فسرت وأنا معاين لاستصحاب تلك الحال إلى أن سرت فى أسواقها الضيقة ففاسيت من ازدحام الناس فيها بحوائج السوق والروايا التى على الجمال ما لا يفى به لا مشاهداته ومقاساته ، إلى أن انتهيت إلى المسجد الجامع فعانيت من ضيق الأسواق التى حوله ما ذكرت به ضده فى جامع إشبيلية وجامع مراكشى ، ثم دخلت إليه ، فعاينت جامعا كبيراً قديم البناء ، غير مزخرف ولا محتفل به فى حصره . . . . إلا أن مع هذا كله ، على الجامع المذكور من الرونق وحسن القبول ، وانبساط النفس فى صحنه ، ولقد تأملت ما وجدته فيه من الإرتياح والأنس دون منظر يوجب ذلك ، فعلمت أنه سر مودع من وقوف الصحابة رضوان الله عليهم فى ساحته عند بنائه ، واستحسنت ما أبصرته فيه من حلق المتعددين لقراءة القرآن والفقه والنحو فى عدة أماكن . . . ثم انفصلنا من هنالك إلى ساحل النيل ، فرأيت

---

(١) ولد ابن سعيد المغربى بقلعة يحصب فى غرناطة سنة ٦١٠ هـ / ١٢١٣ م . من قبيلة يمنية احتل أبناؤها هذا المكان عند فتح الأندلس . قدم إلى مصر سنة ١٢٤٦ م ، وبقى فيها فترة ، ووصف لنا أحوال الفسطاط فى أخريات دولة الأيوبيين .
د . عبد الرحمن زكى ، الفسطاط وضاحيتها القطائع والعسكر ص ٥٧ .

ساحلاً كدر التربة غير نظيف ، ولا متسع المساحة ، ولا مستقيم الإستطالة ، إلا أنه مع ذلك كثير العمارة بالمراكب وأصناف الأرزاق التى تصل من جميع أقطار النيل ، ولئن قلت إنى لم أبصر على نهر ما أبصرته على ذلك الساحل فإنى أقول حقا . والنيل هنالك ضيق يكون الجزيرة التى بنى فيها السلطان الآن قلعته ـ يقصد الصالح نجم الدين أيوب ـ قد توسطت الماء ومالت إلى جهة الفسطاط ، وبحسن سورها المبيض الشامخ حسن منظر الفرجة فى ذلك الساحل .

وأما ما يرد على الفسطاط من متاجر البحر الإسكندرانى والبحر الحجازى فانه فوق ما يوصف ، وبها مجمع ذلك لا بالقاهرة ومنها يجهز إلى القاهرة وسائر البلاد . وبالفسطاط مطابخ السكر والصابون ومعظم ما يجرى هذا المجرى لأن القاهرة بنيت للاختصاص بالجند ، كما أن جميع زى الجند هو بالقاهرة أعظم منه بالفسطاط ، وكذلك ما ينسج ويصاغ وسائر ما يعمل من الأشياء السرقيقة السلطانية ، والخراب فى الفسطاط كثير . والقاهرة أجد وأعمر ، وأكثر زحمة ، بسبب إنتقال السلطان لها ، وسكنى الأجناد فيها ، وقد نفخ روح الإعتناء والنمو فى مدينة الفسطاط الآن . لمجاورتها للجزيرة الصالحية ـ حيث يوجد حكم وقلعة الصالح أيوب ـ وكثير من الجند قد إنتقل إليها للقرب من الخدمة[1] .

---

(١) ابن سعيد المغربى ، المحلى فى حلى المقرب ، تحقيق د . زكى محمد حسن نشر جامعة القاهرة ، ١٩٥٣ .
د . عبد الرحمن زكى ، مرجع سابق ، ص ٥٧ : ص ٧٠ .

وملاحظات ابن سعيد جديرة بالاهتمام ، فهو أدرك خراب أجزاء من الفسطاط نتيجة للمجاعات والأوبئة وحريقها فى السنوات الماضية على زيارته ، ودخلها من باب مصر الذى شيد فى العصر الأيوبى ، وشاهد القلعة الصالحية فى أوج إزدهارها ، وبين أثرها فى نشاط الحركة العمرانية فى الفسطاط .

❁ الفسطاط فى العصر المملوكى

إذا حاولنا معالجة الصورة العمرانية لمصر الفسطاط فى العصر المملوكى سوف نجد أشكالا متعددة من صور العمران ، منها ما هو داثر خراب فى شكل أطلال ، وكيمان متخلفة عن الحريق فى شرقى الفسطاط ، ومنها مناطق قد خربت بعد الحريق لأخذ أنقاضها لتستخدم من جديد فى العمران الحادث . ومنها مرافق ومبان قديمة حافظت على حياتها العمرانية وإن اختلفت صورة استخدامها عن سابق عهدها ، أى أنها تدنت صورتها العمرانية عن سابق عهدها ، من حيث الإستخدام الوظيفى بسبب ما مر على مدينة الفسطاط من خراب وتدهور ، ومثل هذه الصورة واضحة فى بقايا مصر الفسطاط فى المبانى التى ظلت كأماكن يمكن الإستفادة من مبانيها فى وظائف أخرى غير التى أقيمت من أجلها أول مرة [1] ومنها مرافق ومبان حافظت على صورتها ووظيفتها الحضرية ـ خاصة المرافق الدينية بحكم قدسيتها وإتساع مواردها عن طريق الوقف . وإن كانت مثل هذه المرافق قد تناقص عددها عن سابق عهدها .

---

(١) د . عبد العال الشامى ، مدن مصر وقراها فى القرن الثامن الهجرى ، ص ٥٣ ، سلسلة اصدارات مجلة الآداب والعلوم الإنسانية ، المجلد التاسع ، جامعة المنيا ١٩٩١ م .

هذه الصور الثلاث السابقة تمثل العمران القديم فى مصر الفسطاط .

أما العمران الحادث فهو أوضح صور الجانب الإيجابى للعمران بمصر الفسطاط فى العصر المملوكى . وهذا ما يجعل القول بأن مصر الفسسطاط فى عمرانها خلال العصر المملوكى البحرى تفضل ما كان قائما منذ زوال العصر الذهبى للفسطاط (العصر العبيدى ـ أى الفاطمى ـ الأول) .

ومصادر الصورة العمرانية التى سنقدمها للفسطاط فى هذا العصر تعتمد أساسا على ما سطره ابن دقماق فى كتابه « الانتصار لواسطة عقد الأمصار » باعتباره أوفى مصدر يتحدث عن مصر الفسطاط منذ نشأتها وحتى أواخر القرن الثامن الهجرى ، بل ليس بعيدا أن يكون المقصود من عنوان الكتاب « واسطة عقد الأمصار » أن تكون مصر الفسطاط هى المقصوده بين جملة الأمصار العظمى فى الإسلام كالكوفة والبصرة والقيروان والقاهرة . . . . الخ وإذا كان يعيب كتاب ابن دقماق أنه مجرد مسودة لم تستكمل بعد وفيها فراغات عديدة مما يخل بالغرض المطلوب ، كما أن هناك أوراقا ساقطة من المخطوط فى هذا الجزء الخاص بمصر الفسطاط فضلا عن التداخل أو الإدراج لبعض صفحات مصر الفسطاط فى الموضع الخاص بالقاهرة ، لكن أفضل ما يميز كتاب ابن دقماق هو اعتماده الكبير على ابن المتوج الذى يغطى الثلث الأول من القرن الثامن الهجرى ثم يقدم ابن دقماق بعد ذلك ما استجد فى عصره حتى نهاية القرن الثامن الهجرى [1] .

---

(١) د . عبد العال الشامى ، المرجع السابق ، ص ٥٤ .

ونستطيع أن نحدد عددا من العوامل التى أثرت على عمران الفسطاط إيجابا وسلبا فى النقاط التالية : ـ

أولا : العوامل الإيجابية : ـ

ـ التغييرات التى طرأت على شاطئ النيل أمام مدينة مصر الفسطاط :

كان شاطئ النهر يجف أمام شاطئ الفسطاط وهو ما يعرف بظاهرة طرح النهر ، أى اضافة أراضى للشاطئ على حساب مجرى النيل فى الشاطئ الشرقى بينما ينحر النهر فى الشاطئ الغربى لمجراه ، ولم تشهد منطقة الفسطاط ظاهرة طرح النهر بوضوح إلا فى أواخر القرن السابع الهجرى ، ومن ثم حدث عمران واسع على أراضى طرح النهر بطول شاطئ الفسطاط (٢) .

ـ إحتفاظ مصر الفسطاط ببعض الوظائف ـ خاصة الاقتصادية : ـ

بالرغم من العوامل السلبية كحريق الفسطاط والمجاعات الناتجة عن انخفاض منسوب النيل ونقل السلطة المركزية للقاهرة ، وهذا الإحتفاظ قد أتاح لبقايا الفسطاط أن تبدأ فى المحافظة على العمران القديم الباقى ، ثم تأتى مرحلة العمران الحادث منذ بدأت الدولة الأيوبية وبلغ ذروته فى القرن الثامن الهجرى . ويمكن أن نرى من مراجعة ابن دقماق أن نرى أمثلة كثيرة للمرافق والمنشآت التى استحدثت فى القرن السابع الهجرى خاصة أواخره فأكسبت العمران الحادث فى القرن الثامن صورة عمرانية

---

(١) محمد رمزى : شاطئا النيل تجاه مصر القديمة والقاهرة ، ص ٥١٧ ، مجلة العلوم ، السنة التاسعة ، القاهرة ١٩٤٢ م .

مزدهرة خاصة فى مجال المرافق الدينية باعتبارها نواه حضرية أساسية فى كل مرحلة نمو عمرانى حادث[1].

ـ النمو العمرانى الكبير للقاهرة فى غربيها وجنوبها الغربى المتزامن مع العمران الحادث فى غربى الفسطاط من وراء التحام النطاقات العمرانية الحادثة وملأ الفراغات والفواصل بين مدينتى مصر الفسطاط والقاهرة والقلعة ليظهر مجمعا حضريا كبيرا فى القرن الثامن الهجرى [2].

ثانيا : العوامل السلبية :

المقصود هنا ذكر أهم العوامل التى صادفت النمو العمرانى لمصر الفسطاط وأثرت على درجة النمو سواء أكانت هذه العوامل سابقة للقرن الثامن الهجرى أو كانت خلال ذلك القرن. وهذه العوامل هى كما يلى :ـ

ـ حريق الفسطاط عام ٥٦٤ هـ والمجاعات الناتجة عن نقص مياه النيل. ونتج عن كليهما آثار سيئة على عمران المدينة وبالرغم من رجوع سكان المدينة إليها ، ومحاولة ترميم ما خرب إلا أن آثارها كانت أكبر من أن يتم استرجاع عمران المدينة كما كان أول مرة ، وتخلف عن ذلك الكيمان والأطلال التى مازالت بقاياها موجودة إلى اليوم ، من ثم فقد كانت الجهات الشرقية فى عداد الخراب . يقول المقريزى معلقا على حريق الفسطاط « فأتى على مساكنها فأصبحت منذ ذلك الحين تعرف باسم كيمان مصر » وتلاشى أمرها وإفتقر أهلها ، وذهبت أموالهم

---

(١) للأمثلة أنظر : ابن دقماق ، الانتصار لواسطة عقد الأمصار ، حـ ٤ ، ص ٧٨ . و د . عبد العال الشامى ، المرجع السابق ص ٥٧ .

(٢) د . عبد العال الشامى ، المرجع السابق ، ص ٥٨ .

وزالت نعمتهم » [1] . وهذه مبالغة شديدة منه ويذكر القلقشندى [2] أنه منذ عصر الظاهر بيبرس بدأ الهدم فى أطلال خطط (أحياء) الفسطاط والبناء بالأنقاض بساحل النيل بفسطاط مصر والقاهرة ، وتزايد الهدم فيه إلى الآن (عصر القلقشندى : القرن الثامن الهجرى) وقد كان هذا الهدم سببا فى إندثار أكثر الخطط القديمة للفسطاط .

ـ الفناء الكبير أو الموت الأسود عام ٧٤٩ هـ :

إذا كان ما حدث من آثار سلبية على مصر الفسطاط فيما سبق القرن الثامن الهجرى وترك آثاره على العمران لبعض الوقت فإن القرن الثامن الهجرى ـ وهو فترة الإزدهار العمرانى ـ قد شهدفى عهد الناصر حسن (٧٤٩ هـ ـ ٧٥١) إنتشار وباء عام (امتد من الهند والشرق الأقصى إلى مصر وأوربا) كان من آثاره أنه كان يموت بمصر والقاهرة فى اليوم الواحد ما بين عشرة وعشرين ألف نفس ومن الطبيعى أن يكون أثر هذا الفناء الكبير أو الوباء العام على الفسطاط أكثر وضوحا وتأثيرا . فإن الوفيات الجماعية فى مثل هذا الوباء تؤدى إلى خراب الدور لإقفار معظمها من السكان ، ولكن بعد الوباء بدأت العمارة بصورة واضحة خاصة فيما يحيط بالجامع العتيق [3] .

ولم تكن تلك هى الكارثة الوحيدة التى تأثرت بها الفسطاط فقد تعرضت لمجاعة فى عصر الأشرف شعبان من عام ٧٧٦ هـ ـ ٧٧٨ هـ .

---

(١) المقريزى ، الخطط ، حـ ١ ، ص ٣٣٨ ، ٣٣٩ .
(٢) القلقشندى ، صبح الأعشى ، حـ ٣ ، ص ٣٣٨ .
(٣) د . عبد العال الشامى ، المرجع السابق ، ص ٦٠ .

وقد دام الغلاء نحو سنتين ، وزاد من خطورته ما أعقبه ـ بعد عامه الأول ـ من وباء . وقد اعتبر المقريزى هذا الغلاء نذيرا لما بلغتة الفسطاط من شدة أدت إلى بداية الخراب الذى بدأ يحل بها حتى زاد مع بداية القرن التاسع الهجرى لذلك يقول : ولم يزل يخرب مصر الفسطاط ـ أى بعد غلاء عصر الأشرف شعبان ـ شيئا بعد شىء إلى عام ٧٩٠ هـ فعظم الخراب فى خط زقاق القناديل وخط النحاسين ، وشرع الناس فى هدم دور مصر وبيع أنقاضها حتى صارت على ما هى عليه الآن (فى القرن التاسع الهجرى) (١) .

بقيت للفسطاط العديد من الوظائف الاقتصادية والدينية والخدمية ، وهى الوظائف التى بقيت لها بعد زوال وظيفتها السياسية الإدارية ، ومن الطبيعى أن تكون الوظيفة الاقتصادية فى مقدمة الوظائف نظرا لعمرها الحضارى فى هذا المجال منذ نشأتها الأولى كعاصمة لمصر الإسلامية لها موقعها النهرى الواضح وتوسطها الوجهين البحرى والقبلى ورسوخ الصناعات القائمة على الخامات الزراعية وغيرها بها لعدة قرون مما يصعب معه إستئصال هذه الوظيفة الاقتصادية وهذا ما تعكسه جملة المرافق الاقتصادية التاريخية وفى مقدمتها المنشآت التجارية والصناعية .

فى مقدمة المنشآت التجارية نجد الأسواق الرئيسية والفرعية (السويقات) والقياسر والرباع والفنادق ، وهذه المنشآت تخدم التجارة الداخلية والخارجية . وعلى الرغم مما أفسحه ابن دقماق من صفحات

---

(١) المقريزى ، الخطط ، حـ ١ ، ص ٣٣٠ ، إغاثة الأمة بكشف الغمة ، ص ٤٠ .

لدراسة هذه المنشآت إلا أن هناك صعوبة فى فصل الصورة التاريخية لهذه المنشآت عن الصورة المعاصرة اللهم إلا إذا حرص ابن دقماق وهو يستعرض تاريخ هذه المنشآت على ذكر صورتها بالنسبة لصورتها التاريخية على سبيل المقارنة بين الصورتين سلبا أو أيجابا .

وعند ذكر المرافق التجارية خاصة الأسواق يذكر ابن دقماق تاريخها منذ النشأة ، مع بيان الأسماء التى نسبت إليها الأسواق فقد تكون منسوبة إلى مجموعات عرقية كالبربر أو المغاربة أو العراقيين أو لأشخاص لهم مكانتهم أو لتجمعات حرفية كالصيادين والسماكين والزياتين ، أو إلى ما كان يباع بها من سلعة كالرقيق [١] .

هذا وقد أحصى ابن دقماق من الأسواق الكبيرة ثلاثا منها السوق الكبير وهو سوق مشهور قصبة واحدة [٢] له مسالك إليه كثيرة . وأما السويقات فقد ذكر منها نحو العشرين [٣] .

ولا تمثل الأسواق والسويقات إلا منشآت التجارة الداخلية لسد احتياجات سكان المدينة مثل باقى المدن ، وأما المنشآت الكبرى التى تخدم غير سكان المدينة فهى تلك التى تؤدى جملة وظائف من بينها التبادل التجارى وما يتطلبه من خدمات سواء كانت تلك المنشآت الكبرى داخل الأسواق أو خارجها .

---

(١) د . عبد العال الشامى ، المرجع السابق ، ص ٨٢ .
(٢) كلمة قصبة هنا : تعنى أنها قطعة واحدة متصلة للأغراض التجارية فحسب .
(٣) ابن دقماق ، مرجع سابق ، حـ ٤ ، ص ٣٢ ، ٣٤ .

ـ القياسر

وقد عدد ابن دقماق إثنى عشر قيسارية ، وحرص على أن يحدد أوصاف هذه المبانى ذات الصفة التجارية المتخصصة كمنشآت يقوم بها النشاط التجارى ويسكن فى أدوارها العلوية أصحاب الحرف .

والقيسارية قد تكون ذات مساحة كبيرة نسبيا عن المبانى العادية فهى متعددة الأبواب على نحو ما ذكر قيسارية المحلى « فهى سكن الصوافيين وهى بسوق الغرابليين والعطارين وتشتمل على ستة أبواب ، وهذه القيسارية مسكونة جميعها ، وليس بها حانوت خال ، وكان يباع بها سائر أنواع الصوف الحيش والشعر وغيره ، وكان ينزل إليها فى أيام أسواق مصر تجار القاهرة للبيع والشراء بها ، وأزقة أبوابها الخراب الآن (فى القرن الثامن الهجرى) كانت كلهامسكونة ، ولم يبق بها الآن مسكون إلا اليسير وخرب غالب علوها .

ـ وإذا كانت بعض القياسر فى عصر ابن دقماق ليست عامرة كسابق عهدها إلا أن هناك قياسر أخرى عامرة ومسكونة جميعها مثل قيسارية شبل الدولة التى كانت معروفة بأقمشة النساء [1].

ولما كانت القيسارية تمثل مبنى كبير له وحداته المتعددة فإن خرابها بمعنى زوال صفتها التى نشأت من أجلها ، لا يمنع من استخدامها فى غرض آخر استغلالا لهذا المبنى القائم مثل قيسارية ابن الأرسوفى الكبرى ، فهى من القياسر المعطلات لها سنون مغلقة ، فجعلت صبانة فى

---

(١) ابن دقماق ، مرجع سابق ، حـ ٤ ، ص ٣٨ .

وقت من الأوقات ، كما أن قيسارية ابن الأرسوفى الصغرى يضرب بها النحاس ، أما قيسارية ورثة الظاهر التى كانت معروفة ببيع القماش الشامى فقد تعطلت لفترة طويلة حتى سد بابها البحرى من دهليزها وجعل حانوتا ، وأسكنت القيسارية من بابها القبلى للأساكفة حيث أنها كانت بأول سوق الأساكفة [١] .

واضح من النص السابق كيف أن بدأ العناية بالقياسر التى تعطلت قد أخذت أشكالا مغايرة لأصل النشأة ، وهى محاولات للإستفادة من بعض وحداتها المكانية بما يناسب ما حولها من حوانيت ، كما يعكس النص ما كانت عليه من تخطيط وعظم فى المساحة فالمهم هو استغلال هذه المبانى بما يعود بالنفع على ملاكها [٢] .

ونظرا لأن القياسر تمثل مشروعات استثمارية ذات عائد ، فقد أصبحت من المرافق التى يتم وقفها على المشروعات الخيرية والخدمية التى تحتاج إلى عائد القياسر المالى الشهرى . وقد بلغ من حرص بعض الواقفين لهذه القياسر على المشروعات أن وضع وصية الوقف على باب القيسارية مثل قيسارية ابن ميسر الكبرى بسوق وردان ، وكانت مرسومة لبيع الخام البلدى (النسيج الكتانى) والمجلوب [٣] . ومن أشهر القياسر الموقوفة بالفسطاط قيسارية الصبانة التى أوقفها السلطان المنصور قلاوون (٦٧٨ هـ / ٦٨٩ هـ) على البيمارستان المنصورى [٤] .

---

(١) ابن دقماق ، مرجع سابق ، ٤ ، ص ٣٨ .
(٢) د . عبد العال الشامى ، مرجع سابق ، ص ٨٣ .
(٣) ابن دقماق ، مرجع سابق ، حـ ٤ ، ص ٣٨ . (٤) المرجع السابق ، حـ ٤ ص ٣٧ .

وأما الفنادق فقد أورد منها ابن دقماق فى حصره ستة عشر فندقا بالفسطاط إلا أن ستة منها وردت كمجرد أسماء أو عناوين دون ذكر بيانات ، أى بوجود بياض بالأصل دالة على أن الكتاب كان مسودة لم يكتب لها أن تستكمل فى صورتها النهائية (١).

ومن المألوف أن تنسب هذه الفنادق لأصحابها الذين أقاموها أول مرة، أو إلى ما اشتهرت به من سلع مثل فندق « الكارم »وفندق « الحصر» و « القصب » وفندق دار التفاح ودار الخضر والدقيق والعسل ، وقد ينسب الفندق إلى الموضع الذى يقع فيه مثل الفندق بالصبانين .

وقد يحدد ابن دقماق ما يباع فى الفندق والجهات التى ترد منها هذه السلع مثل فندق الحصر ، فهذا الفندق بموردة الحلفاء (الميناء النهرى للفسطاط) يباع به الحصر الرفيعة والحصر القطبان المجلو بان من الفيوم ، ويباع أيضا بالفندق الرطب الأمهات (نوع من البلح الذى تشتهر به قرى الجيزة) والزيتون الأخضر وفندق القصب الذى يباع به القصب السكر .

وقد يحدد ابن دقماق الطوائف التى تنزل الفندق من التجار مثل فندق عمارة الذى ينزله الشامين ، ومن الطبيعى أن ينزل تجار الكارم بفندقهم . ونظرا لأن بعض الفنادق قد أصابها التدهور مع تدنى العمران فى الفسطاط ، فقد أشار ابن دقماق إلى نمط الإستخدام البديل للنشاط التجارى لمثل هذه الفنادق إذا ماأزيلت تماما ، فقد شرع الناس فى

---

(١) د . عبد العال الشامى ، مرجع سابق ، ص ٨٩ .

إستغلال أراضى الفندق فى مجال البناء وفقا لنظام الأحكار (أى تأجير الأرض للبناء دون ملكيتها وذلك بمبالغ زهيدة) وهذه الصورة تمثل المرة الأولى التى يرد ذكرها عند ابن دقماق فى هذه الحالة وفى مثالين آخرين هما عن فندق حوى بن حوى العذرى وفندق عمارة [٤].

ولما كانت الفنادق من المشروعات التجارية الإستثمارية فإنه كان يتم وقفها على مرافق هامة ينفق عليها من عائد أوريع الفنادق وهناك أمثلة للفنادق التى تم وقفها ، من ذلك ، فندق الكارم فإنه من وقف الأمير تقى الدين عمر ابن أخى صلاح الدين . والفندق بالصبانين المعروف وقف المقر الأشرف المرحوم السيفى أيدمر أمير جاندار بظاهرية حوانيت الصبانين « وهذه فائدة تفيد بإقامة حوانيت مستغلة للبيع فى حوائط الفندق الخارجية » . وأما فندق الملك السعيد الذى امتلكه من بعده قلاوون الألفى فقد أصبح وقفا على المارستان المنصورى ، كراؤه فى كل شهر نحو الألفى درهم « وهذه فائدة تعكس إيراد الفندق الشهرى ، وقد ذكر ابن دقماق ثمن أحد الفنادق وهو فندق الوكالة الذى قد ربنحو ٢٥٠ ألف درهم » [٢].

ومن المرافق الصناعية ـ التجارية بالفسطاط نجد مطابخ السكر التى انفردت بها الفسطاط دون القاهرة ولها فيها شهرة تاريخية طويلة حتى لقد عد من فضائل مصر وخير ما يرفع منها السكر الأبيض على نحو

---

(١) د . عبد العال الشامى ، مرجع سابق ، ص ٨٥ .
(٢) د . عبد العال الشامى ، مرجع سابق ، ص ٨٩ .

ما ذكر الدمشقى [١] . وابن فضل الله العمرى [٢] والقلقشندى [٣] .

وإذا كان ابن دقماق قد فصل القول عن مطابخ السكر فى الفسطاط وحدد منها أكثر من ستين مطبخا فإنه عول فى ذلك على ابن المتوج الذى أحصى من مطابخ السكر ستة وستين مطبخا على نحو ما نقل عنه المقريزى ذلك [٤] وهذا الرقم يمثل العامر من تلك المطابخ فى حين قد أجمل ابن دقماق فى حصره العامر وغير العامر مع ملاحظة وجود بياض بأصل المخطوط فى آخر هذا الحصر مما قد يكون تفسيرا لسقوط بعض هذه المطابخ عند ابن دقماق [٥] .

ومن مراجعة ما جاء عن مطابخ السكر يمكن الخروج بالصورة التالية ، فى مقدمة ما يذكر عن المطابخ أنها كانت من المشروعات السلطانية التى أقامها السلاطين ، وذلك بهدف سد احتياجات الدولة ، واحتياجات السلطان ، ولتكون من بعده مشروعات منتجه لأولاده ، وهذا مما يعكس أهميتها كمشروعات استثمارية ذات عائد نظر ا لكون السكر الأبيض من السلع المصدرة من مصر لمختلف الأقطار .

لهذا ففى مستهل حصر المطابخ يذكر ابن دقماق المطابخ السلطانية

---

(١) الدمشقى ، الإشارة إلى محاسن التجارة ، ص ٣٢ .

(٢) ابن فضل الله العمرى ، مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار . ص ١٨ حيث يقول ومن مصر يجلب السكر على إختلاف أنواعه إلى كثير من البلاد .

(٣) القلقشندى ، صبح الأعشى ، حـ ٣ ، ص ٣١٣ .
حيث ينقل عن العمرى .

(٤) المقريزى ، الخطط حـ ١ ، ص ٣٤٢ ، ٣٤٣ .

(٥) ابن دقماق ، مرجع سابق ، حـ ٤ ص ٤٦ .

بخط دار الملك ولها شهرتها فى المكان الذى يجمعها وهى سبعة على صف واحد ، منها مطبخ الدولة ، ومطابخ للديوان الخاص السلطانى ، ثم أن السلطان حسن أفرد منها لأولاده ثلاثة .

إلى جانب إمتلاك السلاطين وأولادهم للمطابخ كان هناك الأمراء والتجار المقتدرين ممن استثمروا أموالهم فى إمتلاك المطابخ وتشغيلها طلبا لما تدره من عائد ، ومثل هؤلاء المستثمرون لديهم المقدرة المالية على إقامة المطابخ وتشغيلها نظرا لما تتطلبه من أدوات (الدولية) والمادة الخام والعاملين فضلاً عن المشرفين .

ومن الملاحظ أن ميناء الفسطاط استمر فى نشاطه فى هذا العصر ، ولبساطة منشآت الميناء ، كانت المراكب الملاحية تسحب إلى اليابسة ، مما جعل انحسار ماء النيل لا يعوق أنشطة المرفأ ، وقد أدى تراكم الرمال والطمى فى فرع النيل بين الفسطاط وجزيرة الروضة أثر سلبى على حركة التجارة إلى الميناء ، وساهم فى نهضة بولاق .

وأما عن المواد التى كانت تنقل إلى الميناء فكانت الحبوب والقمح التى يجرى تخزينها فى مخازن واسعة (شون) بالإضافة إلى التوابل التى كان يتاجر فيها آل الكريمى ، وكان يوجد فى الفسطاط أربعة تجار من بين ٤٦ تاجراً من هذه الأسرة كانوا يقيمون فى الحاضرة المصرية وذلك طبقا لإحصاء جاستون فييت [١] .

وقد قامت الباحثة سيلفى دونوا بحصر الشوارع المستحدثة بالمدينة

---

(١) أندرية ريمون ، القاهرة ، تاريخ حاضرة ، ص ١٥٠ ، ١٥١ .

فى العصر المملوكى من خلال ماكتبه ابن دقماق والمقريزى ، وقد لاحظت أن بالمدينة شبكة من الشوارع تمتد من الشمال إلى الجنوب تقطعها شبكة أخرى من الشرق إلى الغرب ، أما الملاحظة الأكثر أهمية هى عدم وجود أحياء خالصة لدين معين فاليهود والمسيحيين والمسلمين عاشوا جنبا إلى جنب فى المدينة [1] وفى هذه الشبكة من الطرق كانت تتركز أنشطة المدينة .

ونحن فى العصر المملوكى أمام مدينة كانت مسورة بأسوارها داخل المجمع الحضرى الكبير الذى يضم القلعة والقاهرة والفسطاط ، ولكن أسوار الفسطاط منها ما أزيل لكى يفسح المجال للنمو العمرانى فى الغرب ما بين السور الغربى وساحل النيل ـ أما سائر الأسوار وما بها من أبواب فقد جاء تحديدها على النحو التالى :

فكان يستخدم ـ السور الشرقى الجنوبى فى عملية نقل ماء النيل إلى القلعة ، وكانت نهاية السور الجنوبى عند كوم ابن غراب حيث باب القنطرة ، وهو باب مصر الفسطاط الذى يفضى إلى دير الطين جنوبى مصر الفسطاط حيث جسر الأفرم الذى يمثل أقصى امتداد عمرانى لمصر الفسطاط جنوبا على امتداد شاطئ النيل .

ـ السور الشمالى : يمثله الآن مجرى العيون ، وكانت نهايته الشرقية

---

(1) Sylvie denoix , Eustat -Misr d'apres ibn duqumav et Magrizi le caire . ifoa . sp . 1992 .

التى تلتقى مع السور الشرقى عند باب الصفا . أما نهاية السور الشمالى الغربية فقرب كوم المشانيق وموردة الخلفاء حيث باب مصر .

ـ السور الغربى : وكان فيه باب الساحل ، وكان لهدم الجزء الذى شيد من هذا السور فائدة فى عمران ساحل مصر كعمران حادث[1] .

ويبدو ومن كلام المؤرخين أن هذا الجزء من السور لم تتم عمارته أصلاً ، وفى داخل الأسوار نجد نطاقين عمرانيين ، الأول شرقى هو مجرد أطلال لمدينة الفسطاط المتخلفة عن حريقها والمجاعات وما تلى ذلك من تخريب بقصد جمع أنقاض المدينة لاستخدامها من جديد فى مبانى حادثة ـ والنطاق الثانى : هو ما تبقى عن عمران الفسطاط فى الغرب والذى عرف بمصر القديمة أو العتيقة ، ولعل أوضح معالمه العمرانية مسجد عمرو بن العاص وقصر الشمع وما حولهما من مناطق سكنية ومرافق عامة حافظت على حياتها العمرانية ثم أصبحت بمثابة النواة لمدينة مصر الفسطاط فى امتدادها على طول النهر فى العصر المملوكى .

شهدت الفسطاط ظهور مناطق عمرانية جديدة لعل أبرزها منطقة جسر الأفرم ، وينسب هذا الجسر إلى الأمير عز الدين أيبك الأفرم ، وهذه المنطقة كانت شريط ساحلى لنهر النيل كان مغموراً بماء النهر ثم إنحسرت المياه فصارت أراضى طرح النهر هذه فضاء متصلاً بما يليها شرقاً من أراضى السهل الفيضى التى سميت باسم بركة الحبش . وكان ماء النيل يصل من خلال خليج بنى وائل بعد مروره على بركة الشعيبية .

---

(١) د . عبد العال الشامى ، مرجع سابق ، ص ٧٢ .

فلما إستأجر الأمير عز الدين أيبك الأفرم بركة الشعيبية وجعلها بستانا ردم المجرى المائى أو الترعة الواصلة إلى أراضى البركة وبنى أسوار للبستان وأقام جسرا على البستان ليحميه من الفيضان العالى فأقام على ذلك سنين[1].

ويدل ما سبق على أن الجسر شيد فى مكان مرتفع عن منسوب السهل الفيضى ليصبح بديلاً للجسور الطبيعية فى حماية الأراضى الزراعية من الفيضان ، كما أنه يسمح بإقامة المبانى عليه لتطل على النهر ولتصبح فى حماية من الفيضان ، ولذا فقد كثرت العمارة بهذه المنطقة ، وأطلق عليها جسر الأفرم ، وهو المسمى القديم الذى لم تعد له دلالة مرتبطة بحماية الأراضى الزراعية بعد إقامة الدور والمبانى وثبات أرض الجسر منذ القرن السابع الهجرى ، وفى القرن الثامن الهجرى ، كما يقول المقريزى - تنافس عظماء دولة الناصر محمد بن قلاوون من كبار رجال الدولة فى البناء بجسر الأفرم ، وأقيمت المساكن المبالغ فى زخرفتها بحيث صار خط الجسر أعمر خطط مصر الفسطاط ، وسكانه أرق الناس عيشا ، وأترف المنعمين حياة ، وأقرهم نعمة . وهكذا تبدو أهمية جسر الأفرم كعامل طبوغرافى أفسح المجال للنمو العمرانى الشريطى على امتداد جبهة النهر جنوبى الفسطاط فصار هذا الحى متنفسا عمرانيا حادثا للمقتدرين بما يحقق القول العربى الشهير « الأطراف سكنى الأشراف »[2].

---

(١) د . عبد العال الشامى ، مدن مصر وقراها ، ص ٦٤ .
(٢) د . عبد العال الشامى ، المرجع السابق ، ص ٦٤ .

* فى العصر العثمانى

ظلت الفسطاط فى العصر العثمانى ميناءاً نهريا هاماً على ساحل النيل، وإن غلبت تسمية مصر القديمة عليها ، وصار إسمها القديم الفسطاط فى ذاكرة التاريخ ، واهتم ولاة الدولة العثمانية بها ، وإن كان نمو بولاق إلى الشمال منها فى ذلك العصر قد أثر عليها بالسلب ، شهدت الفسطاط نشاطا عمرانيا فى ذلك العصر ، فقد شيد مصطفى باشا شاهين الذى تولى أمر مصر سنة ٩٦٧ هـ ، ربعا بمصر القديمة عرف بربع السادات [١] وتدلنا سجلات محكمة مصر القديمة بما تضمة من حوادث وقضايا ، ووقفيات على طبيعة الحركة العمرانية بمصر القديمة آنذاك .

كان ميناء مصر القديمة النهرى يمثل منفذاً للقاهرة إلى مدن وقرى الصعيد وتجارة القوافل الواردة من سنار ودار فور والتجارة الواردة من الجزيرة العربية واليمن عبر القصير فإسنا وقوص وتحمل هذه المراكب الواردة من الجنوب إلى القاهرة الحبوب والأقمشة المصنوعة من القطن والكتان والزيوت المختلفة والسكر والعصفر ، وتحمل هذه المراكب فى طريق عودتها مصنوعات القاهرة وأوربا ومنتجات مدن وقرى الوجه البحرى إلى الصعيد ومن أسواق أسيوط وإسنا تجد هذه البضائع طريقها إلى دار فور وسنار وغيرها من نواحى السودان الشرقى والغربى ، وكانت أسيوط وجرجا وإسنا وقوص محطات نهرية تجارية ارتبطت ملاحيا بمصر

---

(١) محمد بن أبى السرور البكرى ، المنح الربانية فى الدولة العثمانية ص ١٧٠ ، ١٧١ . تحقيق دكتورة ليلى الصباغ ، مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث ، دار البشائر ، دمشق، ١٩٩٥ م .

القديمة والتى شهد ميناؤها أعدادا كبيرة من المراكب والمتاجر المختلفة والناس من بائعين ومشترين ووسطاء ، وشكلت الأوانى الفخارية والجرار التى كانت ترد من الصعيد على الأطواف العائمة [١] إحدى السلع الهامة التى كانت تجد لها سوقاً رائجة فى القاهرة وقرى ومدن الوجه البحرى وكانت الأوانى الفخارية والجرار سلعة معفاة من الرسوم والضرائب . كما كانت ترد إلى مصر القديمة منتجات الصعيد الزراعية مثل القصب السكرى الوارد من أطفيح وقراها .

ونبات الحلفاء الصعيدى الذى كان يستخدم كوقود فى المنازل ، وكانت واردات القاهرة من هذا النبات الجاف من الضخامة بحيث سجلت احدى الوثائق العثمانية صفقة اشترى فيها أحد التجار من أهل الصعيد ستا وأربعين ألف حزمة من الحلفاء مرة واحدة [٢] لقد كان النشاط التجارى والصناعى بمصر القديمة أثره فى نشاط أسواق المدينة ، ومن أسواق مصر القديمة الرئيسية فى ذلك العصر ، سوق الخليج وسوق الشرب وسوق دار النحاس .

ولأهمية ميناء مصر القديمة إعتبره التنظيم الإدارى لمصر العثمانية

---

(١) الأطواف جمع طوف وهو عبارة عن عدة أوانى فخارية مغلقة باحكام يربط بعضها ببعض ويوضع أعلاها مجموعة من ألواح خشب النخيل الخفيف ويتراوح طول الطوف الواحد من أربعين إلى سبعين قدماً وعرضها من ثلث إلى نصف القدم ، ويقوم على الطوف الواحد من ستة إلى ثمانية رجال يستخدمون فروع الشجر بديلاً عن المجاديف ويتخذون مطبخهم ويديرون معاشهم فوق الطوف ، فاذا ما باعوا حمولتهم فى مصر القديمة عادوا إلى الصعيد سيراً على الأقدام .
د . عبد الحميد سليمان ، تاريخ الموانئ المصرية فى العصر العثمانى ، ص ٢٦٩ ، سلسلة تاريخ المصريين العدد ٨٩ ، الهيئة المصرية للكتاب ، ١٩٩٥ .

مقاطعة مالية مستقلة ، ثم إتحد مع بولاق فى نهاية القرن السادس عشر الميلادى ، ثم انضمت اليهما مقاطعة خضرا ، التى كانت تشتمل على جهات تحصيل الرسوم والضرائب من جزيرة خضرا وعدة جهات فى امبابة بالاضافة إلى عدة مقاطعات فرعية ، وأطلقت دفاتر الرزنامة على هذه المقاطعة اسم « مقاطعة اسكلة بولاق ومصر القديمة وخضرا وتوابعها» وكان من أبرز جهات هذه المقاطعة جمرك مصر القديمة ، حيث كانت تحصل فيه الضرائب على السلع الواردة إلى مصر القديمة من صعيد مصر وكان ضمن هذه المقاطعة مدابغ الجلود فى مصر القديمة ومن مقاطعات التزام مصر القديمة أيضا ، مقاطعة « مال حماية كتابة جمرك در بندر مصر القديمة » التى أنشئت عام ١١٧٣ هـ/ ١٧٥٩ م ، على أن يدفع ملتزمها للخزينة السلطانية مبلغ ١٠٠٠ بارة ارتفعت فى العام التالى ١٠٤٠ بارة .

وتعددت الالتزامات المالية على الملتزمين بمصر القديمة لتعدد الأنشطة الاقتصادية بها ، وكان القلقشندى المؤرخ المملوكى قد ذكر أيضا أن الأنشطة الاقتصادية بالفسطاط كانت كثيرة وأن متحصلها كثير ، وكان الالتزام فى ذلك الوقت معروفا باسم الضمان ، حيث يدفع الضامن مبلغا مقررا كضريبة عن مكان ما ويحصلها هو بعد ذلك ، والزيادة له والنقص عليه [١] .

---

(١) د . عبد الحميد سليمان ، مرجع سابق ، ص ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ .

* فى عصر محمد على وخلفاؤه

شهدت مصر القديمة نشاطا عمرانيا فى عصر أسرة محمد على، وتركز هذا النشاط بصفة خاصة على المنشآت التعليمية ومنها ، مدرسة المعادن التى افتتحت فى يوليو ١٨٣٤ م وأغلقت بعد عامين ، ويرجح أن السبب فى ذلك افتتاح المهندسخانة ، وكانت هذه المدرسة قد نقلت قبل إغلاقها إلى بيت الدفتر دار بالأزبكية ، وكان مكان هذه المدرسة بمصر القديمة قصر البارودى .

ومن هذه المدارس أيضا مدرسة الكيمياء التطبيقية التى افتتحت فى ١٤ نوفمبر عام ١٨٣١ م ، وكان الغرض من إنشائها إعداد العامل الماهر الذى يعمل فى مصانع الحكومة وكان يقوم أحد الصناع الأجانب بتعليم التلاميذ واسمه إيمو وكان اسم مديرها حليم بك ، ولم تعمر هذه المدرسة طويلا [١] وشيد فى عهد محمد على بمصر القديمة ، طواحين للهواء لطحن الغلال [٢] .

وفى عهد الخديوى إسماعيل تم تشييد عدد من المصانع الحربية فى المنطقة بين المعصرة ومصر القديمة ، منها مصنع لصب المدافع بالمعصرة ، وآخر لصناعة البنادق وثالث لإنتاج الذخيرة ، كما نقل المدابغ من باب اللوق إلى منطقة مصر القديمة سنة ١٨٦٥ م . [٣] .

---

(١) د . عبد الرحمن زكى ، القاهرة فى ألف عام ، ص ٢٦٦ ، مكتبة الأنجلو ، الطبعة الثامنة ، ١٩٨٧ .

(٢) حسن عبد الوهاب ، طواحين الهواء ، مجلة العمارة ص ٧٠ ، مجلة العمارة ، المجلد الثالث سنة ١٩٤١ ، العدد ٣ ، ٤ .

(٣) د . محمد حسام الدين اسماعيل ، مدينة القاهرة من ولاية محمد على إلى إسماعيل ، ص ٢٧٥ ، ٣٦٤ . دار الآفاق العربية ، القاهرة ، ١٩٩٧ .